عبورٌ بين دولتين زمنيـَـّتين

إنـّني أتذكـّر قريتي جيـّداً وأتذكـَـّر حينما كان زقاقنا فقيراً مثلنا، وكانت جدرانه ممزّقة الملابس، وبيوته لا تملك أن تضع لها أبواباً، وأرضيتـُـّه عارية من غلائل الأسفلت.. حينما كان ذلك، كانت عقولنا مشرعةً لاستقبال الخرافات، واحتضان كلّ ما يتناقض مع العقل برحابة الرضا والطمأنينة. حتى إذا ابتدأنا بتجاوز هذه المرحلة الفقيرة على المستوى المادِـّي والعمراني، كان من الطبيعي أن نتجاوزها على مستوى التفكير، خصوصاً وأننا في عصرٍ ما عادت تتوهـّج فيه الخرافات من فرط ما ارتفع الحجاب عن مساحة كبرى من عالم المجهول.

بقيت القريةُ جالسةً على ضفة الزمن الأوَـّل جلوس نـُصُبٍ تذكاريٍّ في متحف الذاكرة لا تعرف كيف تسير إلى المستقبل من فرط ما هي متشبِـّثة بحاضرها، وكأنما قدرٌ غيبيٌّ قد جمَـّدها في ثلاجة الوقت، بينما كان الزمن الجديد يـُمَـسِـّدُ بوعيه الصقيل عصاً غليظةً من الأفكار الواعية ليجلد بها ظهر ذلك النـُّصُبِ التذكاريِّ الجامد من أجل دفعه إلى الأمام وصناعة المرحلة الجديدة بكلِّ ملامحها وعلاماتها. زمنان يتقاتلان، ولكنّ التاريخ واثقٌ بأنه سوف يرمي بنفسه في معسكر الزمن الجديد في نهاية المعركة لأنَّ تلك هي طبيعة الحياة التي تعرف كيف تراوغ العقبات وتواصل مسيرتها مهما كلـَّفتها المسيرةُ من عـَنـَتٍ ومشقـَّة.

العمرانُ كائنٌ حيٌّ مثل الكائنات الأخرى فهو يولد ويعيش ويتأنـَّق ويتطوَـّر ويحمل هـُوِيـَّة عصره.. ويموت كذلك. وعندما بدأ العمرانُ يتسلـَّل ببطء السلحفاة إلى طبيعة المباني والشوارع في القرية.. شعرتُ بأنَّ هذه الحداثة العمرانيـَّة بدأت تنعكس على طبيعة النفوس وماهيـَّة التفكير.. فاتـّساع الشوارع.. مثلاً .. جعل مدى النظر أبعد ومدار الرؤية أوسع فكأنما جغرافيا المكان النامية بدأت تعيد تشكيل تضاريس الذوات، وكأنما تثقيف الحجر وتهذيبه هما اللذان قادا إلى إرهاصات تثقيف العقل وتشذيبه مِـمَـّا حدا بالقرية لأن تجترح الخطوة الأولى للانتقال من معنىً إلى معنى أرحب ببطء شديد -كما قلت سابقا- لأن الخطوة التي تختصر المسافة كاملةً لا تأتِـي دفعة واحدة. ذلك النـُّصُبُ التذكاريُّ أو التمثال الحجريُّ انتفض والقرية بدأت تفقد معناها القديم وتفلت من قبضته.. هذه الحقيقة جعلت المواجهة بين المرحلتين أكثر شراسة سواءً على صعيد العمران في حداثته وتطوُّراته، أو حتى على صعيد الإنسان في تقاليده وأعرافه. ولعل إشارة المرور الأولى التي انتصبت على شارع القرية الرئيس لكبح جماح السيارات القليلة التي كانت تعبر من خلال ذلك الشارع المغلوب على أمره .. لعل هذه الإشارة كانت هناك لتوقفَ مركبة الزمن القديم أمام لونها الأحمر وتفتح لونها الأخضر أمام حركة مركبة الزمن الجديد الذي لن يتوقـَّف أبدا.